مقدمة

أيــام جــادة!

نشأت، ورُبيت، على الاحتفال بوحدات الزمن، المؤلفة لمسار حياتى، بمقدار المعرفة التى أحققها، أو الإنجاز الذى أراكمه، فيها، وعلى امتدادها.

وبهذا المعنى، لم انظر إلى سنوات قضيتها، فى مهمة مهنية، بالعاصمة البريطانية (من عام ١٩٩٥ إلى عام ٢٠٠٠)، على أنها فترة مرحة، للسياحة، أو اللهو، أو الادخار، كما اعتاد البعض النظر - مع كثير الأسف - إلى فكرة الانتداب للعمل فى الخارج.

ولكننى عشت تلك الفترة - بكل لحظة فى دقائقها - أيامًا جادة، ومضنية، للتعليم الذاتى، والاندماج فى ثقافة المكان، وتنفيذ بنود أمر تكليف طويل، يلزمنى - وهو الذى أراه قوامًا لعقيدتى المهنية - بأن أبلغ ناس بلادى، عن أحوال بعينها، بفهم، ودقة، كانت الجدية أو التحصيل بوابة، لأى منهما.

الجدية ليست شعاراً يُرفع...

الجدية ليست وصفًا يُطلق، على غير ما وُضع لوصفه من موصوفات.

الجدية هى العمل، وهى العمل الذى يمشى فى مسار، لتحقيق هدف، وإلا أصبح هذا العمل مثل كوب من الماء يستدلق على الأرض، فيفترش مساحة عشوائية، مفتقدًا أى إرادة للحركة، أو التقدم.

أما المشى فى مسار، لتحقيق هدف، فهو مثل انتقال الماء نفسه، عبر مجرى، من نقطة معلومة، إلى نقطة معلومة هى الأخرى.

بعبارة ثانية.. الجدية هى إرادة الحركة، والتقدم نحو هدف.

وبهذا المعنى ـ أيضًا ـ عشت أيامًا جادة فى بريطانيا.

من لندن إلى أدنبره، ومن بلفاست إلى جلاسجو، و من دبلن إلى برايتون، ومن بلاكبول إلى باث، ومن بورتسموث إلى آيل أوف وايت، ومن بريستول إلى برمنجهام، ومن فيشبورن إلى مارلو، كنت أتعقب، وأتقصى كل نشاط سياسى، أو ثقافى، أو إنسانى، يمكن أن يعلمنى شيئًا عن البلد، والناس، ويساعدنى فى تنفيذ بنود أمر التكليف.

سواء بسواء... ورأسًا برأس، كانت أهمية التواجد فى مؤتمرات الأحزاب البريطانية الرئيسة التقليدية، مع حضور عرض مسرحى فى الوست إند، أو فى سادلرزويلز بإزلنجتون.

وكانت أرجحية ووزن الاندماج، فى إحدى جلسات برلمان وستمنستر، لا تقل عن مطالعة، تفاصيل لوحة، تحتضنها قاعات الأكاديمية الملكية للفنون، أو مركز ساوث بانك فى ووترلو.

وسواء بسواء.. ورأسًا برأس، كان حضور ندوة، أو مؤتمر فى المعهد الملكى للدراسات (شاتهام هاوس)، أو المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية "I. I. S. S" ، يعادل الانحشار وسط الناس، فى أحد مدرجات إستاد ويمبلى، لمشاهدة مباراة فى كرة القدم.

وراء كل اسم تاريخ..

وتحت أى حجر حكاية!

كان النفوذ «الكونى» يقتحم مجال عاصمة محافظة، وينزع عنها تقليديتها التى لطالما تسربلت بها، فتستحيل شوارع لندن عالمًا بأسره.

مقهى ذو طابع فرنسى فى نايتسبريدج، ومطعم صينى فى بارك لين، وأحياء هندية، فى توتينج وساوث هول، ولائحة طعام لبنانية فى كل فندق، وراقصون مغاربة، وحواة وسحرة أفريقيون فى أى شارع، وكرنفال لاتينى صاخب فى

ناتينج هيل جيت، وطقس درويشى هائم لجماعات الهارى كريشنا، وألوان عجيبة على شعور البانكس، ورسامون فى كوفنت جاردن، وطوابير أمام المتاحف / المعجزة، وألوان وجنسيات تتناثر على جوانب اللوحة فى ليستر سكوير، والحدائق الملكية، ولندن تاور، ومراكب ويخوت ترصع صفحة التيمز، فى موانئ جميلة تم إحياؤها فى سانت كاترين دوكس، وتشيلسى هاربر، والدوكلاندز.

. . . . . .

وكانت السماء كريمة معى ـ كعادتها ـ إذ اقترن ظرف الزمان، وظرف المكان، بتحولات موضوعية مذهلة، أثرت أيامى فى بريطانيا، وجعلت منها ساحة لتجربة، فريدة، صعبة الحدوث، نادرة التكرار.

فلقد عشت تجربة التحول الفكرى والسياسى المذهلة، فى حزب العمال البريطانى، وشهدت فورة صعوده، المدمدم إلى سدة السلطة، ورأيت ـ بعينى رأسى ـ كيف يتم استيلاد المستقبل من رحم الماضى، والتغيير من رحم التقليد، وتلامست مع، وتحدثت إلى رموز تلك النقلة النوعية، الدراماتيكية طويلاً وكثيراً، ودرست، وهرست، تفاصيلها، وعناصرها، فكأنى، قد أصبحت جزءًا، من حركة الأحداث، لا متفرجًا، أو راويًا!

واندمجت فى تحول تاريخى آخر، يتمثل فى بلوغ عملية السلام الأيرلندية، أفقًا جديدًا، مفعمًا بالاحتمالات مشتبكًا مع أسئلة المستقبل، مناضلاً لتقديم الإجابة الصحيحة عنها.

ورأيت الهاجس الأوروبى، يخيم على الساحة البريطانية، ويضع المجتمع السياسى فى هذا البلد العريق، أمام طاقم، أو منظومة، من المعطيات الجديدة، والمثيرة.

كما عايشت صياغة، أو صناعة، العقيدة الأمنية الحالية للناتو بتحديد جديد

لنطاق العمليات، ونوع الخطر، وبشكل يجعل من منطقة الشرق الأوسط، مسرحًا لتطبيقات تتعلق بمفهوم جديد للأمن ومجال جديد للحلف.

وتحاورت، ما وسعنى الحوار، مع رموز المعارضات السياسية المختلفة، بألوان الطيف السياسى، فى مروحتها الواسعة، التى تعيش فى رحاب الديمقراطية، البريطانية أو على ضفافها، من مجاهدى خلق، إلى أكراد العراق، ومن التجمعات السودانية، إلى ممثلى تيمور الشرقية، ومن التيارات الدينية الأصولية، إلى التكتلات العلمانية، واليسارية، ووجدت نفسى فى قلب عالم يموج بتيارات مذهلة، كل ما فيها يعلمنى شيئًا، وكل ساحة أمر بها ـ فى غمار ذلك الحوار الصاخب ـ تسلمنى إلى أخرى.

شهدت عصرًا أصبح الإعلام ـ فيه ـ يقوم بوظيفة الحزب، وأصبح نشاط المخابرات ـ فيه ـ معلنًا ومنشورًا على المواقع الإليكترونية، وأصبح مفهوم الأمركة ـ فيه ـ مطروحًا كاختبار حضارى ومزاجى، على أوروبا، بقوة، مسيطرة، ومهيمنة.

وشهدت عصرًا أبرز سماته انتصار التكنولوچيا على الأيديولوچيا، بل وأبرز ملامحه تحول هذه التكنولوچيا إلى عقيدة تؤسس ثقافة جديدة، تهيمن على كل المجالات.

وشهدت عصر الهجرات الأوروبية، البينية الكبيرة، بكل تأثيراتها، على سوق العمل، وحركة الاقتصاد، ومستوى الثقافة السائد، وأسلوب الحياة الغالب.

وشهدت بزوغ تطبيقات الطريق الثالث، التى خلقت محورًا سياسيًّا، لافتًا، من كتلة يسار الوسط، كان طامحًا، ومندفعًا ـ كإعصار ـ لبناء، وتكريس فهم سياسى محلى، وقارى، ودولى جديد.

شهدت تغيير نظم الانتخابات البريطانية، وسقوط حزب المحافظين التليد فى هاوية من التخبط، قد تمتد لما يجاوز عقدًا من الزمان، وتقدم حزب الأحرار الديمقراطيين ليصبح قوة برلمانية أساسية، بل وليصبح أقانيم القوة المرجحة،

عندما ينقسم المجتمع السياسى البريطانى فى مواجهة خيارات، تطرح عليه، أو استحقاقات سياسية، وثقافية يحل موعد سدادها.

شهدت شباب السبعينيات يقتحم ساحات التجديد الفكرى، ويدفع بدماء ساخنة، إلى شرايين نظام سياسى هرم، كادت أن تتيبس، أو تتكلس.

شهدت ذلك الشباب يحكم، ويقرر، يحلم ويطور.

عشت فى مجتمع مشغول بهاجس القرن المقبل، الذى لا يعنى «لندن آى» وقبة الألفية «ميلينيم دوم» فحسب، ولكنه يعنى أيضًا الانشغال بأن يكون على قدر مقام ذلك المستقبل، كفاعل أساسى فى رحابه، لا يتعلق بأذيال الآخرين، فى اعتمادية مقيتة، ولا ينكفئ على نفسه، فى انطوائية كئيبة.

رأيت مجتمعًا أزال سقوف حرية التعبير أو التفكير، يطرح قضايا الجمهورية فى مواجهة الملكية، ويخترع شكلاً جديدًا لأحد المجلسين التشريعيين «اللوردات» على نحو يتمرد ويتحرر، من أسر تقاليد راسخة لمئات السنين الماضية، مبشرًا بتقاليد بديلة، يمكن أن تمتد به إلى مئات سنين مقبلة.

رأيت ذلك الدور الرائع الذى تلعبه منظمات المجتمع المدنى، والمنظمات غير الحكومية، فى مواجهة الظواهر الاجتماعية، والثقافية، التى تهدد كيان البلد، ورأيت قادة تلك المنظمات، الذين يذوبون تفانيًا فى الخدمة العامة، والوطنية، غير محتفلين ـ كثيرًا ـ بوضع الخطوط تحت الذات لتأكيد الحضور.

رأيت تجمعات رجال الأعمال، المنطلقة من أجندة مصالح واضحة، تعبر عن نفسها فى برامج سياسية وثقافية، واضحة هى الأخرى.

رأيت ورش الإبداع، وتجارب الفن الراقى وعشرات العروض التجريبية والصغيرة، ومئات من حفلات الكونسير الموسيقية، فتعلمت منها، وعبر الاندماج والمعايشة، لمفردات التعبير فيها، دروسًا لن أنساها، حفرت فى روحى أثرًا، أصبح سمة لازمة لشخصيتى، أو لطرائق تعبيرى عن نفسى، وعن الآخرين.

. . . . . .

ويأتى هذا الكتاب إضافة إلى كتبى الكثيرة فى الحوار والتى عمدت فيها ـ

جميعًا ـ إلى إقالة فن الحوار، من مساحات الترهل، المسترسل، والسهل، التى سحبه البعض إليها، معتمدين الأسئلة المفتوحة، والعبور الخفيف على موضوع الحوار دون حاجة إلى درس أو فهم، ونازعين إلى السطو على الناتج الثقافى لمصادرهم، دون إسهام فكرى حقيقى من جانبهم.

كما عمدت فى هذا الكتاب ـ كذلك ـ إلى تعظيم الناتج المعلوماتى من الحوار، بحيث لا يأتى الرأى، كما لا تتبلور الرؤية، إلا بارتكاز أحدهما، أو كليهما على قاعدة بيانات حقيقية، وثرية.

فلقد أزال العصر الجديد «عصر ثورة الاتصال وانفجار المعلومات» أى وجود لمساحات الخلاء الفكرى الرحبة، التى كانت تبدو كفضاءات يصفر فيها الريح، والتى ملأها الكثيرون بآراء ورؤى انطباعية، مزاجية، أقرت ثقافة «التفضيلات» بأكثر مما أنبنت على «الاعتبارات»!.

أصبح الحوار علمًا، منهجه البحث عن الحقيقة، وتحديد طريق الوصول إليها، وتوليد الأفكار الجديدة عبر تنمية ملكات الاكتشاف، التى يغذيها التقاء الأفكار، أو تصادمها، وهى كلها أمور لا يمكن أن تتحقق، حين يسترسل أحد طرفى الحوار، فى نعيم الإجابة، والإنشاء، وتحت الظلال الوارفة لأشجار عدم التحديد، واللغو البيانى، والبهلوانيات اللفظية.

وأيضًا بالشكل الذى يتيحه جهل الطرف الآخر، وقد دخل إلى ساحة هذا الحوار، من دون جاهزية أو إعداد، أو استعداد، وبحيث يكتفى بأسئلة ساذجة، مفلطحة، ويقنع بأية أجابة تلقى له غير قادر على الاعتراض، أو طرح بدائل وخيارات موضوعية غير تلك التى يسمعها.

لا بل وفوق ذلك ـ فإنه من باب الظهور على مسرح الحوار أو صفحاته ـ يعمد المحاور إلى إعلاء التيبوغرافيا الصوتية، أو الحركات الجسمانية على فحوى ومضمون إسهامه فى ذلك الحوار.

فقد أصبحنا نشاهد أنماطًا من المحاورين يستعيضون عن أداء واجبهم فى

الاستذكار والتأمل والتفكير، ومن ثم التعامل الفاهم مع ما يطرحه عليهم الطرف الآخر، باللجوء إلى التلوين الصوتى (صعودًا وهبوطًا.. حدة ورخامة)، أو إلى التظاهر بالتفكير، إتكاء بالجبهة على راحة اليد، أو سندًا للسبابة على الصدغ، أو تقطيبًا للحواجب، أو التحلى بابتسامة هادئة، لئيمة، توحى بأن وراء الأكمة ما وراءها!

وحين جاء عصر ثورة الاتصال وانفجار المعلومات، كان بمثابة عصر الانكشاف الحقيقى لمثل هذه الحيل الجاهلة.. الرخيصة.

فلقد دخل إلى الساحة طرف معنوى ورمزى كبير، طال تحييده أو نفيه، أو تجاهله، وهو الجمهور، حين أصبح قادرًا على الاستقالة من وظيفة «المتلقى»، والالتحاق بوظيفة (شريك)، بعد أن استكمل مسوغات التعيين، وتسلح بزاد معلوماتى زاخر، أتاحته له الوسائط الإليكترونية، متنوعة الدرجة، والمستوى.

أعاد الجمهور.. أو الناس، الاعتبار لثقافة الحوار، وحرروها من ربقة استعباد النصابين وشذاذ الآفاق!.

وبهذا المعنى، أردت، من خلال تنفيذ أمر التكليف الطويل، من ناس بلادى، بالإبلاغ عن أحوال بعينها، فى بريطانيا، أن يكون لحواراتى بعدان، أحدهما مع المصادر، والآخر مع الناس، وأن تكون غاية الحوار ومأثرته، هى الوصول إلى الحقيقة، بمعنى أن يعلم الناس، وهو ما أعتبره بداية طريق مشاركة ديمقراطى، يرفض الأفكار سابقة التجهيز، ويحطم قيود احتكارية النخبة، التى أثبتت تجارب الجمهور معها، أنها ليست ـ بالطبيعة ـ عالمة بما تدعى علمها به، وليست ـ بالضرورة ـ محقة فى كل ما تصل إليه، وليست ـ بالطبيعة والضرورة معًا ـ مجسدة، مبلورة لخط فكرى، يبتغى وجه الوطن، ويلتزم حدود الوطنية!.

فقد أدرك الجمهور أن قسمًا كبيرًا، يدعى الانتماء إلى مربع النخبة، لم يكن طرفًا فى بناء، أو دفع، أو تطوير حركة نهضوية، كتلك الحركات التى حفل بها تاريخنا فى القرنين الماضيين، وإنما كانت أهداف تلك النخبة المدعاة، تعلى معانى الارتزاق، والتمصلح، والتعالم، على الارتباط، والولاء، والمعرفة.

ومن جانب آخر، أدرك ذات الجمهور، أن تسلط وديكتاتورية القائمين بالحوار، وإحاطتهم للعملية، بقدر معتبر من الضبابية أو الغموض، والتسربل والاتشاح، بأردية المعرفة الزائفة، واستسهال الدخول لساحات الحوار، دون أداء الواجب المنزلى، هو أمر حرم ذلك الجمهور من فرص حقيقية، للفهم، والمشاركة، والتجاوب.

. . . . . .

وقد كنت أعرف أننا تعودنا ـ ولفترات طويلة ـ على التعامل مع مواقف بعض الدول، أو المجتمعات السياسية الأجنبية من خلال منظور شديد الضيق، لاتسمح الكليشيهات، والقوالب الجامدة، بما هو أكثر منه!.

ومن ثم أدركت أن واجبًا إضافيًّا، يقع على عاتق هذه المجموعة من الحوارات، وهو محاولة النفاذ إلى الأسباب، والمقدمات، بدلاً من الاكتفاء بالاشتباك مع النتائج، الأمر الذى عرضنا، ويعرضنا دائمًا لخسائر فادحة، ويفجر فى نفوسنا ينابيع مرارة، وتأسٍ على ذواتنا، حين لا نرى مواقف الآخر تنطبق تمام الانطباق على مواقفنا.

بعبارة أخرى صرنا نستهول الاختلاف، ونستسهل الخلاف!!

وقد نما لدىَّ يقين راسخ، بأن فهم السياسة البريطانية تجاهنا، أو إزاء قضايانا، لا يكون إلا بتعمق فى إدراك الطريق الذى يسير فيه الجدل العام داخل هذا البلد، وفى أموره الخاصة، والآليات التى يعمل ذلك الجدل وفقًا لها.

واجبنا أن نفهم أننا أمام مجتمع متعدد الثقافات، متنوع الأعراق، ديمقراطى، التاج فيه يملك ولا يحكم، على عكس مفهومنا للقائد الذى يملك ويحكم، ونحن أمام مجتمع بنى أفكاره للأمن، وإستراتيجيته للسياسة الخارجية، على انتماء فريد يتوزع ما بين أوروبا وأمريكا، على شاطئى الأطلنطى، ونحن أمام مجتمع توصف مؤسسة الرأى العام فيه بأنها ـ دائمًا ـ فى حال مراوحة، لا يمكن لطرف سياسى ـ أن يطمئن إلى استقراره أو يتصور جموده، ونحن أمام مجتمع

تشكلت وجهة نظره إزاء منطقتنا من خبرات تاريخية واسعة، ومن إسهام متدفق للجالية العربية الغفيرة، واسعة النفوذ، التى تعيش فى رحابه ولكن أيضًا من خلال فهمه لمصالحه، وتقديره لارتباطاته.

ومن ثم فإن بعض الجهالات التى ترى بريطانيا ذيلاً لهذه القوة أو تلك، والتى لا تستطيع التمييز بين فوارق الموقف عند بريطانيا وغيرها، ينبغى ألا نسمح لها بأن تسود نظرتنا أو تقييمنا لأى موقف سياسى بريطانى، وبشكل يحرمنا ـ فى الغالب ـ من الاستفادة ببعض نقاط اللقاء والالتقاء مع مصالحنا، التى يمكننا البناء عليها وتعظيمها، وألا نستسلم للسقوط ـ تحت قيادة أصحاب هذه الجهالات ـ فى بئر ليس له قرار، نبحث فيه عن «التطابق» الذى لن ندركه ـ أبدًا ـ فى عالم التمايز، والتنوع، والاختلافات الدقيقة، مهما أوهمنا البعض بأنهم يرون خيال التطابق، فى قاع البئر، وأن الطريق إليه قد غدا قصيرًا، نوشك إدراك نهاياته!!.

. . . . . .

بحثت ـ عبر بوابات الحوار ـ فى الشئون الحزبية البريطانية، والبنود المطروحة على الأجندة الديمقراطية والتشريعية، وعكست مواقف الأضداد، وتجارب إعادة البناء الحزبى.

وتوقفت ـ طويلاً ـ أمام الأزمة الأيرلندية، محاولاً استخلاص العبر، واستقطار الدروس حول المشكلات ذات الطبيعة «القومية / الطائفية / الدينية» وحول نظرة المجتمع السياسى البريطانى للإرهاب، وطريقة التعامل معه وهو ما قد تتضاعف أهميته، إذا ما قورن بعملية سلام المسار الفلسطينى بالذات.

ثم دلفت إلى ساحة الشرق الأوسط مناقشًا كل عناصر التعرض البريطانى للقضية سواء، على المستوى التقنى السياسى، أو على مستوى الخطاب العلنى، أو على مستوى ثوابت السياسة الخارجية البريطانية إزاءنا، أو إزاء غيرنا، مشيرًا إلى بعض الاختلافات بين مواقف العمال والمحافظين، والتى يمكن ـ لمن شاء بذل بعض المجهود ـ أن يحقق نتيجة ما عبرها، خاصة إذا ما كان الانتماء لبعض

التجمعات الحزبية الدولية «كالدولية الاشتراكية»، أو تجمعات الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، يجمعنا مع حزب حاكم، كحزب العمال!

وأخيرًا... تعرضت لقضايا الأمن والدفاع، فى الإطار القارى، والدولى، منبهًا إلى نوعية من التحولات الدراماتيكية، كانت قد بدأت تأخذ وضعها، فى هذا السياق، والتى تستحق منا، بعض التأمل، إذا أراد البعض بناء تقديرات مواقف صحيحة، لا يداخلها ما تعودناه، من عناق حار، مع تصوراتنا، أو رغباتنا.. ظنوننا أو هواجسنا، بدلاً من الحقائق والوقائع، معتقدين، فى انتفاء وجود «ما لا نحب، ونرتضى»!!

ولقد رأيت أن أرجئ جمع ونشر، عشرات من الحوارات المهمة مع قوى المعارضة العربية، والشرق أوسطية، فى لندن، إلى جزء مقبل من هذه السلسلة، محافظةً على وحدة الموضوع، والتجانس، أو التناغم، بين عناصره وأجزائه.

.....

نعم.. كانت أياما جادة..

أشعر كلما تذكرتها، أو تأملت ناتجها بأننى لم أضعها هدرًا، ولم أهمل أو أتراخ فى تنفيذ بنود أمر التكليف الطويل الذى تلقيته من ناس بلادى، للإبلاغ عن أحوال بعينها.

أحب تلك الأيام..

وأحتفل بها، كما نشأت ورُبيت على الاحتفال بوحدات الزمن، المؤلفة لمسار حياتى، بمقدار المعرفة التى حققتها، والإنجاز الذى راكمته فيها، وعلى امتدادها.

وأحسب... أنها كانت ـ دومًا ـ جديرة بالاحتفال.

د. عمرو عبد السميع

القاهرة ـ مصر الجديدة
فى ٢٥ من أبريل ٢٠٠٣